

قاعدة طبنة والشرعية الخلافية في بلاد المغرب الإسلامي

د . لقبال موسى

أستاذ التاريخ الإسلامي ، ورئيس المجلس
العلمي معهد التاريخ - جامعة الجزائر-

1 - طبنة وأحداث افريقية في القرن الثاني للهجرة :

ان طبنة ذات الماضي السياسي والعسكري الزاهر الباهر منذ القرن 1 م الملىء بالأعجاد السياسية والعسكرية والعمرانية بدأت عهدها قصرا أو مجموعة قصور ، أي حصنا أو مجموعة حصون تدخل ضمن خطوط التحصينات الرومانية المحكمة المعروفة بالليس أما دورها فتضمن الاسناد ، والمراقبة والحماية ... واستمر كذلك لكن مع بعض التغيير والتطوير في العصور التالية .

وصدى ذلك نجده في كتابات الرحالة والجغرافيين المسلمين بدءا من ابن واضح اليعقوبي مولى العباسيين ، الى أبي الفداء مرورا بابن حوقل النصيبي والبكري والادريسي⁽¹⁾ .

وفي مخزون الذاكرة التاريخية يؤلم القلب تفريق جيش التابعي عقبة بن نافع الفهري بجوار طبنة الذي أدى الى كارثة مشؤومة في تهوده ... ويذكر الرحالة المسلمون في القرن 3 هـ/9 م أن طبنة كانت أكبر مدينة في المغرب الإسلامي بحيث لا توازيها في الكبر غير سلجاسة . والقيروان يقول محمد بن يوسف الوراق : «قصر طبنة قديم أولي كبير جليل مبني بالصخر عليه أزاج كثيرة ينزله العمال» .

ولقد راعى الخلفاء المسلمون وولاتهم في افريقية وبلاد المغرب هذه الأهمية البارزة التي كانت تكنسها مدينة طبنة بعد أن احتواها الفتح الإسلامي .. وأصبحت درة في عقد ولاية افريقيه الإسلامية خاصة بعد أن حصنها أبو جعفر عمر وبن حفص الملهي والي أبي جعفر المنصور . فأعطيت أو أخذت بحكم عبقرية المكان دور الاشراف والتوجيه الاقليمي . واهتم الخلفاء بعمارها ، وبتسويرها وباختيار أكفاء العناصر القيادية لولايتها والاشراف منها على منطقة واسعة شاسعة

متنوعة العناصر والخيرات والثمرات ، والظواهر الجغرافية ... انها منطقة الزاب .. ومدلولها التاريخي الجغرافي القديم أوسع بكثير من مدلولها الجغرافي في وقتنا الحاضر . اذ كانت تشتمل على ما يعرف الآن بمصطلح الزاب وبلاد الجريد وقاعدته بسكرة النخيل مع منطقة الأوراس ومن قواعدها الكبرى باغاية وبشمال قسنطينة بما فيها أرض كتامة وقاعدة حكمها ميلة . ثم منطقة طبنة .. حتى مشارف مدينة أزبة التاريخية بجوار المسيلة الآن ، وماله دلالة وجود بابين في مدينة طبنة أحدهما باب تهودة والثاني باب كتامة .

فلندع ابن واضح يعقوبي يتكلم «.. ومدينة الزاب العظمى طبنة ، وهي التي ينزلها الولاية .. وبها أخلاط من قریش والعرب ... والزاب بلد واسع فنه مدينة قديمة يقال لها باغاية .. حولها قوم من هواره .. بجبل جليل يقال له أوراس .. ومدينة يقال لها تيجس تابعة لها .. حولها قوم من نفزة ومدينة عظيمة جلييلة يقال لها ميلة عامرة محصنة .. ومدينة يقال أنقاوس كثيرة العمارة والثر وطبنة مدينة الزاب العظمى ، وهي في وسط الزاب ومدينة مقررة لها حصون كثيرة ومدينة أربه ، وهي آخر مدن الزاب مما يلي المغرب في آخر أعمال بني الأغلب ولم يجاوزها المسودة .. وقد قفزت أهمية طبنة السياسية الى الدرجة الأولى وذلك عندما امتحنت السلطة الشرعية وقاعدة القبر وأن الإسلامية أثناء حكم آل الصهلب الأزدية (151 - 179هـ) في افريقية ، حيث كانت المنطقة آنئذ تشتعل بالفتن ناراً وبالحروب شرراً وشراراً بسبب ثورات الخوارج الصفرية والاباضية .

ولقد زاد هذه الثورات وهجا هزيمة سرت وموت أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري امام الظهور الاباضي ، ثم مبايعة أبي حاتم بعده اماماً للدفاع . فجعل هذا الأخير من أولى مهامه الثأر لا رجاء الاعتبار وجمع شتات الخوارج كلهم من أجل هدف مركزي هو احتلال القيروان وطرد واليها عمرو بن حفص هزار مرد (= ألف رجل) المهلبى الحاكم الشرعي ، ولما كان هزارم أثناء هذه الفترة ، يقيم في طبنة لتنظيم شؤونها ولاعدادها اعدادا كافيها لمواجهة نذر الشر واحتمالات المستقبل المكروهة من طرف الثوار .

فقد بادر أبو حاتم وغيره بفرض حصار شديد على المدينة ، أشبه بحصار طروادة القديم وضيقوا الخناق عليها حتى يستسلم المهلبى أو يموت .

وفي النصوص ما يشير الى أن هذا الحصار ، اشترك فيه اثنا عشر فريقا قبليا ومذهبيا من الصفرية والاباضية ، قادم أبو حاتم ، وابن رستم ، والمسور مسعود الزناقي ، وأبو قرعة المغيلي وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي وعاصم السدراقي .

ان هؤلاء هم بعض رؤساء الخوارج وأئمتهم وفقهائهم . ورغم هذه الشدة العظمى التي أمتحنت بها طبنة ووالي القيروان عمرو بن حفص ، فان القيوم سرعان ما انتشعت وتحولت الجريبات لصالح الشرعية تم ذلك بحيلة بارعة ترتب عنها النجاح في تفريق جموع الخوارج بواسطة الاغراء

لبعض زعمائهم الطموحين ... بالأموال الجزيلة ان هم استجابوا ومن هؤلاء أبو قرّة المغيلي وأخوه اللذان انسحبا على التوالي ، فأثر انسحابها المفاجيء على الوضعية تماما .

وعلى الأثر تصرف ابن حفص استغلالا للموقف ، على نحو رائع ومشكور اذا لجأ ابن رستم بعد ذلك الى الانسحاب الى منطقة تاهرت لآخر مرة بعد هزيمة حلت به في تهودة .

وعندما غادر الى طبنة لتخفيف الضغط على حامية القيروان التي أصابها الأعياء من أثر الحصار خالفه إليها أبو قرّة لحصارها من جديد بعد أن انسحب مكرها ، فكان جزاؤه أيضا هزيمة منكرة ألجأته الى العودة الى مضاربه في وطن زناتة بتلمسان .

والمهم في هذا الحادث : أن نجاح أبي حاتم في دخول مدينة عقبة وموت عمرو بن حفص مستلحا في لساحة الوغى ، أظهر دور طبنة في الحياة السياسية كما ظهر دور منطقة الزاب التي غدت مأوى لكثير من المطرودين من القيروان فقد التجأ جند أبي جعفر المنصور خليفة العباسيين الى طبنة بعد أن فقدوا القيروان مؤقتا ، انتظارا لجولة أخرى موفقة لتحرير القيروان من قوات أبي حاتم الملزوزي .

2 - طبنة ويزيد ابن حاتم المهلي .

وهذا الدور الايجابي لطبنة .. هو الذي جعل يزيد بن حاتم المهلي بطل الانتقاد بعد أن خلف قريبه عمر بن حفص على ولاية افريقية يرعاها رعاية خاصة وينتخب لها أقرب الناس اليه يحكمها وهذا لمصلحة الولاية وحماية للشرعية الخلافية وقاعدة القيروان من أية مفاجآت بعد تصفية حركة أبي حاتم الملزوزي .

ولأن المشكلة الدينية والمذهبية عادة لا تحسمها القوة المادية وحدها ، لاتصالها بالوجدان وبالشخصية ، فقد بقي التيار المذهبي الانفصالي قائم الذات ليعبر عن شخصية بلاد المغرب الاسلامية ، وعن هوية بعض الشرائع القبلية في مجتمعه الإسلامي الجديد .. ويظهر ذلك في تيهرت وتلمسان وسلجاسة وحتى في فاس العلوبة ، وفي قرطبة الأموية السنية المالكية ذات النظرة العدائية للعباسيين الأحناف .

ولقد كانت حاميات المدن المشهورة في افريقية الإسلامية ، وهي القيروان وتونس وطبنة وميلة من القيسية والينية وريجة اضافة الى عنصرين هما ، الجند المحليون ، وعنصر الفرس . وعلى عكس حاميتي القيروان وطبنة اللتين كانتا خليطا من عناصر عربية وأخرى غير عربية ولا يجمعهما الا الإسلام وخدمة الشرعية ، فقد تميزت حامية اتونس (المدينة) بكثافة عدد حاميتها من الخرسانية وهم عرب أيضا من الأرومتين ، انما كانوا ينطون على غضب شديد من حادث تهجيرهم تدريجيا من بيئة المشرق ، حيث رجحت كفة الفرس الخرسانية طيلة العصر العباسي الأول .

وعندما وصل الى مركز قيادة وتوجيه حامية تونس الخرسانية بعض الطموحين مثل عيسى بن موسى العجلاني ، والحسن بن حرب الكندي وعبد الله بن الحارود الأنباري المعروف بعبديه وأبو الجهم تمام بن تميم التيمي جد الفقيه أبي العرب صاحب تأليف طبقات علماء افريقية لما وصل ... بدأت حركة الاحتكاك بين المصريين ، أو العاضريتين في افريقيا الإسلامية القيروان التاريخي ، وتونس الناجمة بعدها ، وكان يغذيها أو يلهب فتيلها طموح أهوج من بعض القادة الى الظفر بالسلطة في القيروان لفرض إرادتهم علي الخليفة في بغداد الذي استخذى للفرس الخراسانية وقبل الدون في العرب الذين اهتز وضعهم وتهرى ساعدهم .

والمهم أن حركة الصراع بين القيروان ، وتونس وهي سمة القرن الثاني الهجري أبرزت بوزن ثقيل في مسيرة الأحداث دور طبنة قاعدة الزاب وحاضرتة وأمام أمصاره .. سندا للشرعية الخلافة ، وحربا شديدة ضد ولاية الاستيلاء والغلبة من الطموحين وضد شغب الخرسانية في تونس . ولقد استثمرت المدينة أهمية دورها ، وحجم مساعدتها للخلافة خير استثمار فلاميتها الاستراتيجية الوسطية ولقوة حاجيتها - ولوحدة اتجاهها ، ولوقفها المنضبط ، تمكنت عبر عهود مختلفة من دفع بعض ولائها الى أعلى مركز للتوجيه وهو ولاية افريقية وبلاد المغرب (العباسية) ، وقد خضع لهذا التدرج في الترقى الوظيفي والسياسي ، الأغلب بن سالم التيمي جد الأغالبة ، والفضل بين روح المهلي ، والعلاء بن سعيد المهلي وأخيرا ابراهيم بن الأغلب بن سالم مؤسس أسرة الأغالبة أمراء افريقية حتى نهاية القرن 3 هـ 10 م .

ان هؤلاء جميعا توالوا عبر فترات على ولاية طبنة واقليم الزاب ومنها قفزوا تحت ضغط الحوادث الى مركز الولاية في القيروان وهكذا استمرت طبنة في أداء دورها كاملا غير منقوص حفاظا على الشرعية واسنادا لها .

وجاءت أحداث ولاية افريقية في نهاية القرن 2 هـ لكي تظهر وأن وليها هو أكفأ من يضمد الجراح ويرجع الهدوء الى نصابه ، والريح الى مجراها في بلاد كثر فيها الطامحون والطامعون الى السلطة ، ومن رؤساء الخرسانية في تونس الذين غدوا منصرفين عن النشاط الثغري والتوسعي والتبشيري وراء البحر الى الاشتراك في الفتن وتزعّم الثورات ضد ولاية القيروان خلفاء العباسيين المسودة أصحاب السيادة الشرعية العليا على المنطقة كلها بما فيها جيوب العلويين والخوانج .

ومدينة بهذه الأهمية المتعددة الجوانب يرغب في كسب ولائها واحتضانها كل طموح ، راغب في تحقيق هدف سياسي ، أو مذهبي أو قبلي ، ولهذا أعتبر أبو عبد الله المحتسب الايكحاتي مدنية طبنة بعد احتوائها ، درة في عقد المدن التي تم فتحها في كتامة والزاب فعامل أهلها بلطف ، وكرم ، وراعى لها دورها وأهميتها .

3 - سياسة إبراهيم ابن أحمد الأغلب تجاه طبنة والزاب :

فهل لنا الآن أن نتساءل الى أي حد تطورت أحوال بني الأغلب ومنطقة الزاب بعد نشاط حركة التوسع الإسماعيلي ؟ وكيف أمكن لقبيلة مثل كتامة كانت تشكو عزلة تامة عن سير الأحداث أن تنهض على هذا النحو المدهش ، بعبء نشر النفوذ الإسماعيلي ، وبحركة التوسع العسكري ضد طبنة والزاب كمرحلة تمهيدية لتصفية امارة بني الأغلب في افريقية ؟ وهنا نلاحظ الأثر السلبي لسياسة ابراهيم بن أحمد تاسع الأمراء تجاه عصبية الدولة من العرب في الزاب وحاضرة طبنة .

وفي سلسلة أخطاء الأمراء الأغلبة خطان جوهريان ظهرت أبعادها على نظام الدولة وعلى حياة مجتمع المغرب الإسلامي السياسية والمذهبية .

ويأتي في المقدمة : سياسة الأفناء لعناصر عربية من سكان الزاب وهي تلك التي أقترفها ابراهيم بن أحمد دون تفرقة بين من أخطأوا في حقه وبين البرءاء وقد سجل ابن عذارى هذا الحادث بقوله : «وفي سنة 268هـ كان فتك إبراهيم بن أحمد بأهل الزاب فقتلهم وقتل أطفالهم ، وحملوا على العجل الى الحفر فألقوا فيها : ألا يحق أن نتساءل عن هؤلاء التعساء الذين دفنوا رغم حبهم للحياة وأبيدوا مع أطفالهم رغم اصرارهم على البقاء أنهم في الأغلب من بين عرب المنطقة ومواليهم أي من عصبية الدولة ولحماتها فالتعامل معهم على هذا النحو ، في بلد العصائب مضر بسياسة الدنيا والدين . أما الخطأ الثاني فكان شبيها بالأول في كونه قصد به عنصر قوي يعتبر هو الآخر من بين عرب المنطقة ومن تميم نفسها .. عصبية الدولة وأسها ، وكان هؤلاء عرب بلزمة الذين غدر بمات من فرسانهم في رقادة بعد أن ظمأنوا الى ضيافة ابراهيم بن أحمد ولا سبب لذلك الا لأن رهطا منهم قد أجاروا رجلا في باغايه وأبو حسب العرف العربي الأصيل تسليمه للأمير رغم الحاحه عليهم وتظاهره بالقوة .

ولقد أعتبر ابن عذارى هذا الصنيع من ابراهيم بن أحمد من أسباب انقطاع دولة بني الأغلب ، وتساقط مدنها وحواضرها تباعا تحت ضربات جند كتامة وقود الحركة الشيعية الإسماعيلية .

والى هذه التطورات الجديدة التي أسفرت عنها سياسة ابراهيم بن أحمد وخلفه يشير شيخ مؤرخي المغرب عبد الرحمن بن خلدون بقوله «.. واستقلت كتامة بالأمر ، من يومئذ ثم من بعدهم من برابرة المغرب ، وذهبت ريح العرب ودولتهم عن المغرب وافريقية فلم يكن لهم بعد دولة الى هذا العهد وصار الملك للبربر وقبائلهم يتداولونه طائفة بعد أخرى وجيلا بعد جيل» ومن هذا القول الجامع الذي هو أشبه باللحن الحزين يستنتج الباحث مدى خسارة الأغلبة ، وأهمية دور العرب في حماية وجود دولتهم ، التي كانت بحق تمثل الشرعية العباسية العربية ، وسيادة العنصر العربي وقوته ومجده واستقلاله بالحكم والتدبير في افريقية وبلاد المغرب . كما

يلاحظ الانتقال التدريجي لمركز التوجيه والاشراف السياسي والمذهبي منذ أواخر القرن 3هـ/10م ، الى جذمي البربر المسلمين البتر وابرانس ، وقد مثل هذا الدور عصية كتامة وأحلا فيها من صنهاجة وعجيسة وزواوة الذين انتحلوا مذهبية إسلامية شرقية مشايعة لآل البيت هي نخلة التشيع في صورته الاسماعيليه أو الباطنية ، وعملوا بكل همة ونشاط ، وبمختلف الوسائل الدعائية والمادية على انجاح أهدافهم التي انسجمت مع أهداف دعاة آل البيت وعميدهم أبي عبد الله الشيعي .

4 - الداعي الشيعي وحركة التوسع ضد طبنة والزاب نتائج وآفاق :

وكانت حركة التوسع الكبرى في مشارف الزاب أي في عمق كتامة ، ضد ميله وسطيف وقسنطينة ثم اتسعت الى حواضر الزاب الأخرى ومنها قاعدة توجيهه وحكمه مدينة طبنة الزاهرة الباهرة .

وياعتبارا بأن الانتصار في كينونه كان حاسما وقاصما ثمرته قسنطينة ، وحمل أرهاصا بالنصر القريب للحركة ، وبظهور دولة المهدي المنتظر من آل البيت ، فقد أرسل الداعي المنتصر ، من قاعدة تمركره في ايكجان (بني عزيز) بشرى بذلك الى عبيد الله «المستور» في سجماسة ومعها أموال وتحف مما غنمه جند كتامة في كينونة .

ولئن كان دور حلمية طبنة وقائدها الفارس الشجاع شبيب بن أبي سداد لم يظهر بوضوح أثناء معركة كينونة قرب القرام - لأنه لم يكن من بيت الامارة مثل قائد الحملة ولأن حمايته لم تكن غير نجدة مساعدة من احدى المدائن ، أضيفت الى مجموع الحملة الضاربة ، فان الملاحظ أن أهمية ما قام به مع رجاله في كينونة برهنت عنها صلابته مع وإليها فبا بعد في مدينة طبنة القاعدة المركزية التي أصبحت بعد لسقوط قسنطينة اثر معركة كينونة ، هدفا مباشرا لتوسع الداعي ورجال حركته ، هؤلاء الذين غدوا شبه أحرار في الحركة الى أية نقطة في اقليم الزاب ، وذلك بعد أن ثبت فشل المجهود الدعائي والحربي الذي أشرف عليه زيادة الله الأخير بمعية آل بيته من رجال الحرب والسياسة . أما الاستيلاء على طبنة فله أكثر من مبرر من وجهة نظر الداعي وأركان حربه اذ هي :

أ - أكبر حواضر الاقليم وهي مركزه وقاعدة توجيهه .

ب - وهي مقر حامية أغلبية موالية ثبتت نجاعتها ، وفي طبنة وآل يمثل السلطة السياسية في رقاد عاصمة بني الأغلب .

ج - وأثناء المجهود الحربي الأغلب ضد الداعي في كتامة قدمت طبنة كقاعدة متقدمة خدمات جلى للحملة التي تقاطرت ضد كتامة خاصة تلك التي قادها ابراهيم بن عمر بن حبشي صنو أمراء بني الأغلب في رقادة .

د - لم تخف على الداعي وأركان حربه ميزة توسط موقعها في منتصف الجادة أو الطريق الأعظم الذي يؤدي الى وقاده والقيروان عبر سهل بلزمة وباغاية .

هـ - وكان الداعي يعلم جيدا أن معارضييه الكتاميين الذين فشلوا من قبل في مواجهته في الاقليم - قد تجمعوا وبدحره تحدثوا - في قاعدة طبنة ، وعلى أمل داعبهم في انجاح ذلك من موقع متقدم خارج عن الاقليم - وكان يتزعم فريق المعارضين فتح بن يحيى المسالتي المشهور بلقب الأمير .

و - وبدون ريب فالمميزات الاقتصادية التي تتوفر عليها منطقة طبنة وأرباضها كانت ضمن المبررات حتى يحرم منها أواخر الأمراء الأغالبة ، والمعارضون من شيوخ كتابة أيضا .

ز - وبدا في هذه المرحلة من توسع الداعي وكأن طبنة الزاب تمثل قاعدة حيوية في خط الدفاع الأول عن مدينة رقادة عاصمة افريقية الأغلبية ، فاقحامها وضمها الى سلسلة المدن الخاضعة والمأمونة سيكون محسرا لنظام بني الأغلب ، بقدر ما يكون مفيدا ومربحا للحركة كي تزحف بيسر صوب قلب افريقية وحاضرة رقاده .

وماضي طبنة في الدفاع عن السلطة الشرعية ناصع البياض كما أشرنا منذ بداية حركات الخوارج وثورات جند الخرسانية الى أن أنتهى بتركز نظام الشرعية الخلافية ومظهرها ، نظام الأغالبة السني التابع للعباسيين .

وها هي اليوم طبنة الزاب تقف وحدها في مواجهة أنصار الحركة الإسماعيلية موقفا معاديا وصلبا وشجاعا ، ومنسجما مع دورها التاريخي المبدئي القديم . فلقد ثبت قائدها أبو المقارع على موقف الدفاع وصمد حتى آخر لحظة فلم ين أو يضعف ، أو يقبل سلم الشجعان ، حتى سدت في وجهه جميع المنافذ والطرق الا طريق الاستسلام والاستئنان .

ولمعرفة الداعي بمجريات الأحوال وبنفسيات الرجال وبماضي طبنة ومركزها في نظام الدولة وتباسك جاليتها العربية لم يفاجأ عندما أناخ بكلكله لحصارها يتنعم سكانها عنه ، وصمودهم الرائع ودفاعهم المجيد وبقدر ما أصر هؤلاء من داخل الأسوار على الاعتصام والدفاع عن بلدهم وشرفهم وتقاليدهم ومذاهبتهم السنية المالكية بقدر ما أصر الداعي على تشديد الضغط عليهم ليفتحوا الأبواب قسرا أو يطلبوا الأمان على النفس والمال والولدان .

وأمام تعذر الاستيلاء على المدينة سلما وحتى لا يؤثر جو الانتظار والمطاوله على نفسية رجاله استخدم لأول مرة في حركة توسعه ضد المدن ، أسلوبا جديدا لتسهيل اقتحام طبنة المحمية وراء أسوارها وقصورها ، وتمثل في الاعتاد على دبابة كانت في حوزته لثقب أحد أبراج السور ، وأحداث ثغرات متعددة يتسرب منها جنده الى دواخل المدينة بعد أن تمت لهم السيطرة على أرباضها .

وهنا نلاحظ أن هذا السلاح الجديد ، كان ضمن غنائم الحرب الوفيرة بعد معركة كينونة

(أواخر سنة 292هـ) ، وقد تركها ابن حبشي بعد انسحابه من أرباض قسنطينة . ويبدو أن ذلك هو الأقرب الى الصحة لأن الداعي لم تكن في حوزته أسلحة من هذا النوع ، والدليل على ذلك أنه وقف برجاله محتاراً ولفترة طويلة أمام أسوار سطيف مركز عرب أسد بن خزيمه ولم يتمكن من دخول المدينة الا على أساس التراضي بعد منح الأمان لأهلها (أواخر 291هـ) فلو كانت هذه الوسيلة في حوزته ما تورع قط عن استخدامها ، على اعتبار أنها تغنيه عن سياسة الأمان ، وتقلل تضحياته وأمد انتظاره ، وأيضاً لا يكون هناك دافع قوي لهدم أسوار سطيف بعد فتحها ما دام يمكنه في أي وقت اقتحامها لو تمتعت عنه . ومهما يكن من أمر فقد أجدت هذه الوسيلة في اقتحام طبنه عنوة أواخر ذي الحجة 293هـ/905م لكنها لم تجد في كسر حدة المقاومة التي استمرت وانتقلت من المدينة الى أحد حصونها الكثيرة بحيث لم يترك رجال المقاومة وسيلة نافعة لأجهاز نتائج الفتح الا استخدموها . وعندما اتضح لهم اصرار الداعي على الاحتفاظ بمكاسبه في المدينة رسموا خططهم على أساس الخروج منها في ظروف ملائمة - بيد أن تحرك الأمير أبي مضر خزرزياة الله الثالث لنجدة المدينة ولاسعاف رجال المقامة . أضاف الى هؤلاء شحنات ألهمت حركة مقاومتهم واصرارهم على المناوشة لإقلاق راحة الداعي ورجاله الذين أنشوا أظافرهم في قلب المدينة ، واحتلوا أطرافها وانشأوا في أرباضها واثالوا عليها كالذبى بأعداد غفيرة .

وعندما تبين لرجال المقاومة ووالي المدينة ولقائد المقاومة ، أن نجدة الأمير هي من بين الأماني الكاذبة وأنها لا تغني عنهم شيئاً حتى لو وصلت وأن لا فائدة في المقاومة وأن النجاة بالقلة القليلة متعذرة ، وأن النصر شبه متعذر في ظل الظروف الدقيقة عندئذ سلم أبو المقارع للداعي على أساس منح الأمان لسكان المدينة .

ولقد وضع أبو المقارع لرجاله حقيقة الموقف بقوله : «نحن في وسط مدينة يقد أخذها العدو علينا وأحاطوا بها من حولها ، وأقرب العمار إلينا باغاية ، وبيننا وبينها ثلاثة أيام ، فان نجونا من المدينة لم ننج من حولها - وأن نجونا منه وطلبنا لحقنا واليأس من النجاة من هذا كله أقرب» وعند تسليم المدينة للداعي ولقاء الحاجب أبي المقارع به ، تبادل الرجلان الإعجاب والاحترام ، فكلأها قائد شريف غطريف ، وزاد الداعي إعجاباً بأي المقارع أن هذا الأخير رفض مفارقتها الى رقادة قائلاً له «ما كنت بالذي أنصرف عنك ولا أدخل افريقية الا بدخولك وكيف أختار المسير الى قوم قد أدبرت عنهم الدنيا وأفارقك وهي مقبلة عليك» ؟

وهكذا كان ولاء هذا القائد الشجاع للداعي من أهم مكاسبه في طبنه فقد أصبح من أخلص رجاله كظله لا يريم عنه ، ودخلا معا رقادة بعد قرار الأمير الأغلي منها اثر سماعه بكارثة الأربس (قرب الكاف) 296م ، ولقد كفل الاستيلاء على طبنه للداعي مكاسب أخرى منها .

- ظفره بعناصر المقاومة الكتامية ورأسها يومئذ فتح بن يحيى المسالتي فلم يعف عنهم .. وكان

فتح قد ألب الأحلاف في كتامة وغدا محورا لكل تأمر ضد الداعي جفي تازروت كما ألب الأميرين الأغلبين : أبا العباس عبد الله وابنه زيادة الله ، وتسبب في تلك الحملات الانتقامية ضد المتشيعين في كتامة ، وقد قادها من بيت الامارة ، أبو عبد الله الأحوال وإبراهيم بن حبشي ، وبتأثير ففتح امتنع سكان سطيف لثرة كما تمتع سكان طبنة . وكانت النتيجة أرهاقا وتضحيات هنا وهناك .

- أما عداؤه للداعي وحركة كتامة فكان لا يخلو من عناصر المنافسة الشخصية بينه وبين غريمه وابن قبيلته وعصبيته هرون بن يونس الذي لقب بشيخ المشايخ ، وارتبط بالداعي ارتباطا شديدا أودي به أخيرا في حادث التصفية لبناء الدولة الفاطمية فيما بعد .

وتضامن مع فتح في معارضته ، فريق قبلي من مسألته ، أو غلوا في الكيد والدس والعداء والوقية حتى ظفر الداعي بهم جميعا غنية سهلة اثر سقوط طبنة - والاستيلاء على طبنة ، كان فرصة ذهبية للداعي كي يقوم بحركة دعائية مركزة على النحو الذي سيشرفه ويعلي حركته وأتمتها المستورين في ذات الله حتى الآن .

لم ينس الداعي ماضيه كحتمسب في مدينة البصرة ، ولا حياته الزهدية البريئة في كتامة . والآن وقد أصبح في قلب الزاب فاتحا ظافرا ، فأولى واجباته تنوير الرأي العام في المدينة وفي كامل الأرجاء بأفاق سياسته المالية وبمنهجه الشرعي في التعامل مع أرباب الأموال والعقارات .. والأنعام ، لقد سأل الجبابة والسعاة عن مصدر الأموال التي أتوه بها وعندما أجابوا بأنها من العشور أخذها منهم وسلمها لبعض فئات طبنة وأمنائها ليرجعوها الى أصحابها ويبلغوهم نيابة عنه أنهم جميعا أمناء على ما يخرج الله لهم من أرضهم ، وسنة العشور معروفة على ما ينص عليه كتاب الله .

وعندما أجابه أحد الجبابة عن مصدر الدنانير الذهبية التي كانت بحوزته وأنها جزية اليهود والنصارى في المدينة عن حول مضى لهم ، أنكر الداعي ذلك بحجة أن الرسول ﷺ كان يأخذها منهم دراهم فضية ، لا دنانير ، وعندما أوضح الجابي بأنه إنما أخذها دنانير على مقتضى قواعد الصرف الذي ينتسب العمل به الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه استحسّن الداعي الاجابة وأردف (هذا مال طيب) .

يبد أنه أمر بعض رجاله برد المال الى أصحابه تأنيسا لهم ، وتأليفا لقلوبهم تجاه العهد الجديد .

والملاحظ أن الداعي تصرف في هذه المحاورة على نحو من شأنه ارضاء مشاعر السكان خاصة السنيين ، لأنه وإن كان اسماعليا ، لا يأخذ برأي عمر فقد استصوبه ظاهريا على مقتضى قواعد المذهب الاسماعيلي . الذي يأخذ بالظاهر والباطن ، ويجري ذلك مبدأ على كل النصوص والمواقف . وأثر عن الداعي كذلك رفضه أخذ أموال الخوارج ، بحجة أن المسلمين ليس عليهم

بمقتضى إسلامهم خراج أو ضريبة عقارية ، وأخذهم منهم يدخل في إطار الظلم ومخالفة الشريعة وماتواضع عليه السلف .

هذا بينما أثر عنه قبوله لأموال الصدقة والزكوات عن الأنعام ، عينا عندما تحرى وتبين أنها أخذت حسب المقادير الشرعية المنصوص عنها في السنة - ومن مجموع هذه التصرفات البارعة والموجهة للاستثمار انجذب الناس وتراءى لهم مدى حيطة ومراعاته للحق والعدل واحكام الشريعة في سياسة الأموال وهي أعز ما يملكون ، فأسلسوا إليه القيادة واطمأنوا وانتشرت أصداء هذه التصرفات في الأرجاء ولقيت استحسانا من السكان الذين «تاقت أنفسهم إليه وبايعوه ودخلوا في طاعته» على حد تعبير ابن عذاري .

5 - طبنة والدور الجديد - المحمدية مصر فاطمية جديدة في الزاب :

على هذا النحو استثر الداعي وضعه في طبنة ، حيث غدت منبرا دعائيا مفيدا ، وعن قريب ستصير قاعدة انطلاق للكشف والفتح في آفاق الزاب وافريقية ولن تصير كذلك في رأي الداعي قبل تحقيق بعض الشروط وأهمها :

- ارجاع الأمن الى النفوس وتنظيم ادارة المدينة وتحديد مهمة عاملها في الأيام المقبلة .
- وقد كان تلمظ الداعي بالسكان بعد الأمان مدعاة لسكونهم واطمئنانهم وفي الناحية الادارية تحاشى تثبيت عامل طبنة القديم لارتباطه بالعهد القديم وهذا رغم قيمته وبتقدير الداعي له ، وقدم للمسؤولية على طبنة عاملا جديدا قد يكون من بين ثقات عرب طبنة المواليين لآل البيت هو أبو عبد الله يحيى بن سلمى .

وفي إطار تحديد المهام المستقبلية ، أوضح الداعي بأن الأولويات بعد ضمان حسن الادارة ، الاشراف على حركات الاستطلاع والكشف في النواحي المجاورة اسنادا لكل مجهود عسكري توسعي أصبح الآن موجها تدريجيا نحو بقية مدن اقليم الزاب وقصوره وأقربها الآن قصر يلزمه أحد مراكز عرب بني تميم ومضارب قبيلة مزاته البترية ، التي أظهرت عناء مستحكما للحركة .

ويبدو أن توفيق الداعي في طبنة في ميادين الحرب والسياسة والادارة وفي اصطناع الرجال وفي اكتساب محبة السكان زاده قوو وعزما وملأ نفسه بالروح والراحة ، ورقق حاشيته وفجر شاعريته ، وهو الفارس الزاهد فقال مخلدا ذكرياته كاشفا عن أهوائه وأنماط حياته :

من كان مغتبطا يلين حشية	فحشيتي واريكتي سرج
من كان يعجبه ويهجهه	نقرالدفوف ورنة الصنج
فأننا الذي لا شيء يعجيني	الا اقتحامى لجة الوهي
سل عن جيوشي اذ طلعت بها	يوم الخميس ضحى من الفرج

وأشبه بالداعي في جانب تخليد الذكريات والانتصارات شاعر متشيع متأخر عنه في العصر .
هو أحمد بن محمد المروزي معاصر الخليفة المنصور ورفيقه ومؤرخ حملته ضد أبي يزيد بقوله في
ملحمته الطويلة عن محنة أهل طبنة بأبي يزيد صاحب الحمار وعن الأثر الحمود لتدخل
المنصور .

سرنّا وقد حل بقرب طبنة وصار منها أهلها في محنة
فأعظم الله العزيز المنّة وبدلوا من بعد نار جنة
فهل أصاب المروزي كبد الحقيقة وهل تنبأ بأفاق المحنة مستقبلا لهذه الحاضرة الزاهرة ؟

والذي يبدو أن الداعي بعد أن استثمر ميزات طبنة في تحقيق النصر وفي تدشين عهد
جديد ، قوامه خلافة علوية في أفق المغرب الإسلامي ، بدأت باختفائه بعد سنوات قليلة ملامح
الامتحان لدور المدينة تم ذلك بتدبير جديد أرهص له تدريجيا وترجم عليها منذ سنة 313هـ
حيث وضع محمد القائم بأمر الله ولي عهد المهدي نواة قاعدة سياسية جديدة في مشارف إقليم
الزاب ، حملت اسمه وعرفت بالحمدية وهي المسيلة الحالية .

ولقد أشرف على تمصيرها بنو حمدون الأنلسيون ، فبدأت تدريجيا أمارات انتقال مركز الثقل
السياسي والتوجيه الإداري من طبنة على وادي بيطام الى هذه المنشأة الفاطمية الجديدة على
وادي سهرو إليها يشير أحمد بن محمد المروزي في ملحمته عن اسماعيل المنصور عندما حل بها أثناء
فتنة أبي يزيد .

ثم الى مدينة مرضية أسست على التقوى محمدية
أقبل حتى حلها ضحية بالنور من طلعت المضيّة
فحل في عسكره المسيلة في هيئّة كاملة جميلة
للنصر في أرجائه مخرّبة بنعمة من ذي العلى جليّة

لئن ظفرت الحمدية في العصر الفاطمي وفي ظل بن حمدون بالأهمية السياسية ، فلقد بقي
لطبنة اعتبارها التاريخي ، ومركزها الاقتصادي والثقافي والاقليمي ، وصدى ذلك نجده في
النصوص المعاصرة للفاطميين مثل ابن حوقل ، كما نجده في النصوص المتأخرة عن عصرهم
وحسبنا ما قاله الإدريسي الحموي وهو من جغرافي القرن 6هـ (12م) عن المدينتين التاريخيتين
والحدثة ، «فالمسيلة في نفس روايته مستحدثة استحدثها على بن الأندلسي وهي عامرة في بسيط
من الأرض ويضيف أنها في أرض طبنة وهذه اشارة منه غنية عن أي تعليق لتأكيد ما نحن
بصدده .

وعن طبنة يقول : «مدينة الزاب وهي حسنة كثيرة المياه ، والبساتين ، وسورها من تراب
وأهلها أخلاط ، وبها صنائع وتجارات وأموال لأهلها والتمر بها كثير وكذلك سائر الفواكه» .
إذا حتى في هذا العصر أي القرن 6هـ 12م بقيت في الاعتبار الأساس واحتفظت بمكانتها

وهيبتها في نظر المعاصرين للفترة وأيضا في نظر أبناء جيلنا من مواطنيها ومن الباحثين في حقول التاريخ والآثار والأدب والحرف والصناعات الإسلامية .

بعض مصادر ومراجع البحث

- | | |
|---|----------------------|
| - البلدان - ط النجف . | - البيهقي |
| - افتتاح الدعوة وابتداء الدولة - ط ، بيروت . | - القاضي النعماني |
| - فتح بلاد المغرب وابتداء الدولة - ط ، تونس . | - الرقيق القيرواني |
| - في وصف بلاد افريقية وبلاد المغرب - دوسلان الجزائر - | - البكري |
| - نزهة المشتاق - قطعة منه «وصف افريقية» - ط ، الجزائر | - الادريسي |
| - البيان المغرب في أخبار افريقية والأندلس والمغرب - ط ، بيروت . | - ابن غداري المراكشي |
| - طبقات الدرجيني ، ط ، قسنطينة . | - الدرجيني |
| - اتعاظ الحكما بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - ط ، القاهرة | - المقرئ |
| - كتاب العبر - ط ، بيروت | - ابن خلدون |
| - نهاية الأرب ج 26 مخطوط دار الكتب . | - النويري |
| - السير - ط ، القاهرة | - الشماخي |
| - المغرب الإسلامي ط 3 ، الجزائر . | - موسى لقبال |
| - تاريخ فتح المغرب العربي - ط ، الإسكندرية | - زغلول عبد الحميد |
| - طائفة الإسماعيلية - ط ، القاهرة . | - محمد كامل حسين |
| - دور كتامة - ط ، الجزائر | - موسى لقبال |

- دائرة المعارف الإسلامية مقال أغالية وغيره ...